شرح تنوير البصائر والأبصار

في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار

الأستاذ: حساني مختار

جامعـــة الجزائـــر 02

الكتاب يوجد في خزانة المسجد النبوي الشريف تحصلنا على نسخة منه خلال زيارتنا للمدينة المنورة في شهر رمضان المبارك سنة 2012 وهو يؤرخ للتاريخ الإسلامي حيث تعرض لعصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ثم العصر الأموي والعباسي والأحاديث المتعلقة بالجهاد لأن الهدف من التاليف هو حث الجزائريين على مواجهة الحملات الأوربية ضد مدينة الجزائر التي بدأت مع القرن العاشر الهجري السادس عاشر الميلادي واستمرت حتى الاحتلال الفرنسي لها في سنة 1246/ 1830[1].

لم تترجم المؤلفات التي تمكنا من الاطلاع عليها العالم الجليل الذي ينتسب لقبيلة أمازيغية توجد مضاربها في الجنوب التونسي وفي الوسط الجزائري وبالتحديد بولاية عين دفلة وكانت من بين القبائل ذات الأهمية خلال العصور الوسطى لكنه ورد في الكتاب تاريخ وفاته ولم يرد تاريخ مولده ومراحل حياته.

المؤلف المطماطيعلي بن داود الشريف البوعناني توفي سنة 1189[2].

البداية الحمد لله الذي استعمل على هذه الملة الحنيفة من يستعمر الأرض والبلاد وأعنى أهلها بالمضاعفة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾[3].

النهاية وأن يعمنا بالنظر إلى ذاته الكريمة في فسيح الجنان وأن ينفعنا بشفاعة الشفيع الصادق خير الأنام.

المخطوط بحالة جيدة كتبت بعض الكلمات بالمداد الأحمر.

الغاية من التأليف التحريض على الجهاد.

يتجلى من خلال المخطوط أن الهدف من تأليف الكتاب أنه جاء بطلب من قبل.

يقول ومن العجائب الربانية أني لما قلعت من شرح هذا الكتاب وزاد أمير المؤمنين ومحب العلماء والصالحين ومطعم الفقراء والمساكين أي الآلية صالح بأي من ناحية الزيبان وقد بلغ في صحرائها أوفاقط ما وصلها من العج حملة.

النصارى:

يحاول صاحب النص أن يبين لنا في هذا النص مفهوم النصارى وانتسابهم ثم يتعرض لعقيدتهم السابقة قبل اعتقادهم للديانة المسيحية التي تمت في القرن الرابع الميلادي على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين مؤسس القسطنطينية المعروفة اليوم باسطنبول حيث اتخذها عاصمة للإمبراطورية البيزنطية ومن أهم آثارها كنيسة آل صوفية التي تحولت إلى مسجد بعد فتح العثمانيين لها في منتصف القرن الخامس عاشر الميلادي وعن هؤلاء يقول المؤلف: [النصارى هم بنو الأصفر برووروم بن العيض بن

عيسا وشقيقف إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم بن الخليل كانوا على دين الصائبة إلى أن تنصر قسطنطين حملهم على الذين الذي يزعمون أنه دين المسيح ومنهم الأرمن وقاعدة مملكهم أخلاك فلما ملكها الملوك صاروا راعية فتفرقوا في مصيصة وطرسوس وحيل أمانيه والجزائر التي على الخليج وماركوس مالكهم سيروا منهم بلاد الروميلي وبلاد الكرج وبلادهم أخدة من الخليج القسطنطينية إلى شمال حامرون إلى قريب من عجم التتار ومنهم قبائل السركز ويقال لهم السركجوالجركس وهم على بحر يانطيس وهم في نكل من العيش ومنهم الرءوس ومنهم البلغار وأسلم منهم بلدة كثيرة[4].

القبائل الأوربية:

من بين تلك القبائل الفرنسيين الذين يطلق عليهم إسم الفرنج والمصطلح لا يزال متداولا لحد الآن حيث أن المشارقة يطلقون على الأوربيون مصطلح الفرنج ولعل المؤلف أخذ ذلك من الكتب المشرقية وعن هؤلاء يقول: [ومنهم الإلهان ومنهم البرجان ومنهم الفرنج المنتمون إليهم أهل الفرانجيز أي أهل الفرنجة والعامة تقول أفرانصة مجاورة لجزيرة الأندلس وقد غلبوا عليها وأقرب إخوانهم أسبانيا دمرها الله].

الجنويون:

من بين الدول الإيطالية في العصور الوسطى ولعبوا دورا كبيرا في العلاقات التجارية بين أوروبا ودول المغرب الإسلامي فكانت سفنهم تنتقل بين الضفتين الشمالية والجنوبية وتقوم بنقل التجار المغاربة وبضائعهم إلى دول المشرق الإسلامي بعد ضعف الأساطيل الإسلامية في نهاية العصور الوسطى وتعرف في تلك الفترة بجمهورية جنوة وكذلك جمهورية البندقية التي لعبت هي الأخرى دورا مهما في النشاط التجاري خلال العصور الوسطى وفي هذه الفترة وقفت مع الأساطيل المسيحية ضد الأساطيل الإسلامية ومنها الأسطول الجزائري يحدد موقع جنوة فيقول: [منهم الجنوية مدينة كبيرة جدا غربي القسطنطينية ومنهم البندقية وأعظم مدينتهم روما وهي غربي جنوة وغربي البندقية وهي مقر خليفتهم.

مالطا:

هذه الجزائر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط لعبت دورا هاما في العلاقات بين العالم الإسلامي والمسيحي ومن بين جزيرة مالطا التي كان بها فرسان القديس يوحنا كانوا من أكبر المعادين للإسلام والمسلمين شاركوا في الحروب الصليبية واعترضوا مرارا السفن الإسلامية المتوجهة نحو المشرق الإسلامي في العصور الوسطى والحديثة وهؤلاء كانوا مرتبطون بالجمهوريات الإيطالية وفي هذا الصدد يقول: [وعمل جزيرة من جزائر البحر تؤدي لها خراجا كصقلية وقبرص وأفريطش ومالطا ويرون ذلك دينا.

الجلالقة ورد ذكرهم في المصادر الإسلامية التي تناولت الوجود الإسلامي في الأندلس حيث كان الصراع بينهم وبين المسلمين منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية التواجد الإسلامي بالأندلس وهؤلاء يمثلون الدويلات المسيحية التي نشأت شمال الأندلس والمتمثلة في إمارة أرغون وقشتالة وعنهم يقول: [ومنهم الجلالقة وهم أشد من الإفرنج وأنهم لا يغسلون ثيابهم أبدا ويبقونها عليهم حتى تبلى ويضاجع الرجل زوجة الآخر بحضرته ولا غيرة بل ولا عيب عندهم وبلادهم شمال الأندلس][5].

لمنتعرف على هؤلاء وحسب ما ورد في النص هم بين ألمانيا وفرنسا وللهم السويسريون حاليا :[ومنهم البشقردية بين بلاد الألمان وبين أفرنجة سيئوا الأخلاق وفيهم مسلمون انتقلوا إليهم بعد خراب الأندلس][6].

لكن نجد الكاتب في هذا النص يرتكب خطأ فادحا يتعلق بسيدنا عيسى عليه السلام حيث ورد القرآن في سورة مريم أن نبوته بدأت مع مولده وأن النصوص المتوفرة لدينا لم تشر إلى أنه أوحى إليه في جبل سعيد بالناصرية وفي هذا الصدد يقول: [وأما البلردقيز والدلي مرك والفلامنوا ومن في حكمهم فليسوا من بني الأصفر وإنما هم بنوا عيساو][7].

والسبب في تسميتهم نصارى أن مريم لما ولدت عيسى عليهما السلام لحم من قرى القدس وجرى لأمها ما أخبر الله به في كتابه سارت به إلى مصر ورجعت بعد بلوغه أثني عشر سنة فنزلت في بلد الناصرية فأقامت به فيها إلى أن أوحى الله إليه في جبل سعيد فصارت النصارى تنسب إليها][8] ورقة 42.

صالح باي:

من بين الذين تعرضوا لصالح باي العنتري حيث قال في: [كان تركيا من قدماء قسنطينة حضر مع الباي زرق العين في الحرب ضد تونس كان من الرجال العقلاء له سيرة حسنة يسمع كلام الشاكيين وينصر المظلومين[9].

أما الحملة التي أوردها صاحب النص فكانت نحو الجنوب لإخضاع منطقة الزيبان لسلطة الدولة الجزائرية لأن تلك المنطقة تندرج ضمن محيط بايلك الشرق وفي هذا الصدد يقول صاحب تاريخ قسنطينة وهو المؤرخ مجهول: [في سنة 1780 توجه إلى الجنوب وأرغم شيخ الدواودة الدباح على الطاعة وكذلك شيخ توقرت فرحات بن جلاب وتمكن من جني الجباية من المناطق الممتدة من بسكرة إلى توقررت[10].

وفيما يتعلق بالجانب الحضري، فقام صالح باي عام 1789 ببناء مدرسة بجوار جامع سيدي الأخضر وأحضر لها المدرسين، وقرب منه العلماء أمثال المفتي الشيخ عبد القادر الراشدي والشيخ شعبان بن جلول والقاضي المالكي الشيخ العباسي، بل يتوقف على بناء المؤسسات بل أقر أجور لكل الأئمة والمعلمين والأساتذة من أموال الأوقاف التي منحها رعاية كبيرة مما أدى إلى زيادة مداخلها][11].

ويقول في شأنه: [ومن العجائب الاتفاقية الربانية أني لما بلغت من شرح هذا الكتاب هذا المحل ورد أمير المؤمنين ومحب العلماء والصالحين ومطعم الفقراء والمساكين أبي الأيالة صالح باي من ناحية الزيبان وقد بلغ صحرائها أرض قط ما وصلها من العجم أفراط ولا ضربت لهم فيها قط فسطاط وأمر الجفات من بادية تلك الناحية بأنواع من المعروف ونهاهم عن كثير من المنكر][12].

وقع اختلاف بين الذين تعرضوا لسيدي خالد من الرحالة كالعياشي والدرعي والورتلاني حول بنوبته منهم من يقر النبوة ومنهم من يرى عكس ذلك والكاتب يعتبر أول من أقر ذلك الشيخ سيدي عبد الرحمان الأخضري في القرن العاشر الهجري السادس عاشر الميلادي ويقول الكاتب عن هذه القضية: [ولما رجع إلى وطنه مر بالمقام المعروف عند الناس بالنبي سيدي خالد ووجد قريبا منه طائفة اتخذوا سدرة هنالك منسكا يطوفون بها وبئرا يتبركون بمائه تبرك الحاج بزمزم فنهاهم عن ذلك وأوعدهم بالعقوبة إن عادوا إلى مثله][13].

يبدوا من هذا النص أن الكاتب كان بمدينة قسنطينة في عهد صالح باي أو كان مرافقا له في حملته على الجنوب الجزائري لأنه يذكر سألني والمقصود به صالح رائس فيقول: [وسألني عن نبوءة السيد خالد فأجبته إن كان نبيا عند الله وكان قبل بعثة نبينا وغير خالد بن سنان العبسي فجائز عقلا وإن لم يثبت شرعا وإن كان المراد به خالد بن سنان فباطل محض][14].

كما علمت من ثبوت وفاته ودفنه في أرض بني عبس واستظهر كاتب هذا الملك الفقيه الحافظ النزيه أبو عبد الله ابن كوجك علي بقصيدة معزوه إلى الفاضل العارف بالله الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن الصغير المعروف بالأخضرين مضمونها يقينه بثبوت نبوته لكنه لم يستند فيها إلى نص فلا يقضى بها لأن قصارى أمرها أنها شهادة عدل واحد لاسيما وهو من علماء القرن العاشر.

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:

هذا فيما يتعلق بأحداث عصره ثم بعد ينتقل إلى استعراض الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب الإسلامي فيقول: [وإفريقية فتحت في عهد عثمان بن عفان][15].

لكن في عهد عثمان كانت الفتوحات الأولى التي قادها عبد الله بن أبي سرح والي مصر إينذاك وكانت حملته تعرف في كتب التاريخ بحملة العبادلة تمت سنة 27 وتمكن خلالها من الانتصار على البيزنطيين ومقتل حاكمهم جرجير لكن الفتح النهائي لم يتم إلا في عهد موسى بن نصير في آخر القرن الأول الهجري][16].

ثم يتعرض للفتح الإسلامي لأفريقية.

القبائل العربية التي استوطنت المغرب الإسلامي:

يستعرض الكاتب القبائل العربية التي استقرت في بلاد المغرب الإسلامي بعد فتحه وهناك دراسة للأستاذة الدكتورة مجاني بوبة حول القبائل العربية التي استقرت ببلاد المغرب الإسلامي وعلى الخصوص القبائل اليمنية وقد أورد البكري في كتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب بعض تلك القبائل التي اتخذت بعض مدنه المغرب الإسلامي مستقر لها كمدينة سطيف وميله وبلزمة وغيرها من مدن الجزائر في ذلك العصر أما الكاتب فيحددها بقوله: [واستوطنها من العرب لعذوبة أنهارها وكثرة خصبها وثمارها غير قبيلة منهم كهذيل وبني حازم وبني صدف وبني مدحج وبني نائل وبني كعب وهمدان وبيوت كثيرة من الأنصار فلا قالوا ولا سمع منهم أن هذا خالد بن سنان ولو صح النقل من العلماء وأثبتوه ورسمه المؤرخون منهم كما بينوا أمراء جيوشهم الفتح كعقبة بن عامر ورفاعة بن الأخرش وأبي زمعة البلوى فإنك تجدهم في غير كتاب من كتب المؤرخين مذكورة سيرهم وصورة موتاهم ومحل تربتهم على أن علماء الصدر الأول في أفريقية أكثر من علماء كل إقليم عددا وأوسعهم حفظا ومددا][17].

يريد الكاتب من خلال هذا النص أنه لو ثبت نبوته لاذكر من قبل المؤرخين الذين استعرضوا الفتوحات الإسلامية وكذلك الرحالة في العصور الوسطى.

وحديث العامة أنه لما مات وضع على ناقة وسارت به إلى المغرب ودفن حيث بركت به يرده السمع المتقدم أنه دفن في أرضه وأوصى الخ.

المقصود به الرواية الشفهية المتداولة في المنطقة حول نبوته والتي تداولتها الأجيال جيل بعد جيل مثل ماهو الحال بالنسبة لشخصية عقبة بن نافع واستشهاده بالمنطقة لا تزال الرواية الشفهية متداولة بين سكن ولاية بسكرة بصفة عامة وسيدي عقبة بصفة خاصة من طرف الشيوخ كبار السن.

وأيضا لو سلمنا وبارك الله في الناقة وأغناها عن الأكل والشرب وطوى إليها الأرض حتى بلغت من طرف الحجاز إلى هذا المحل المتكلم فيه ودفن فمن ذا الذي أخبر به أن خالد بن سنان والحال أنه ميت والناقة لا تتكلم.

وبالجملة فالمقام مبارك بشهادة الشيخ الأخضري المذكور وشهادة غيره.

ثم كونه وليا من أولياء الله ونبيئا من أنبياء الله غير خالد بن سنان العبسي غير بعيد والله ينفعنا به لله من أوليائه وأنبيائه ورقة 83.

بعدها يعلق على المكان بقوله أن المقام مبارك اعتمادا على رواية الأخضري.

أما هذا الكاتب المعاصر للحدث فيقول: [العظيم الإفرنج هو ووالي أحكامهم العامية المعروف بكارلوا مقدم أسبانيا التي هي بين أفرنجة والأندلس والألمان.

وصلاه أي جماعة من بني الأصفر عبده الأصنام الكافرين غير الأنام المبغضين لدين الله[18] ورقة 115.

وصف مدينة الجزائر:

عمرها الله وحرسها وجلباب أمنه وأمانه ألبسها وأدام عمارتها بالإسلام وحفظها من عبدة الأصنام بما حفظ به طيبة والمسجد الحرام بجاه سيدي المرسلين عليه الصلاة والسلام من أيدي المؤمنين أولي العقيدة الصحيحة والعزيمة النجية والبصيرة النافذة الثاقبة والريح الهابة الفانية الغالبة والنصرة المعتادة من السواجبة بما نزل به الأمين وكان حقا علينا نصر المؤمنين.

والجزائر هذه كانت في القديم تحت مملكة بجاية من أرض العدوة وهي المملكة الوسطى في المغرب والآن صار كرسي المملكة فيها الإسلام والعجم ومنها إلى المغرب وجدة ولعله وجدة وجبال هنالك وصحاري وإلى المشرق بونه وتبسه وجبال بينهما وإلى الجنوب بني ميزاب وما دون ورجلان من نواحي بسكرة وتوقرت إلى حدود جريد تونس.

قال العوفي مدينة الجزائر طولها وعرضها وهي مدينة عجيبة حصينة صبية الماء والهواء أحدقت بها البساتين من ثلاث جهات والبحر من جهة واحدة أدخل رجله قبلتيها وهي كالضفة وبها الحرث العظيم والخصب العميم ليس في المغرب أعظم من بركة زرعها وبساتينها نزهة كبساتين دمشق إلا أنها ليس في خلالها أنهار والثمار التي فيها لا نظير لها في المغرب.

والحال أنها أي محروسة الجزائر للطامع أن ينالها منهم أهلكهم الله ولعنهم وغضب عليهم.

من السحاب: لكثرة عددها وعدد أوليائها الصالحين وعساكرها الموحدين فكما لا مطمع لأحد أن يتناول السحاب بيده لبعده وعظمته كذلك لا طمع بنتج لأعداء الله في نيل هذه المدينة ورقة 117.

وهي حصينة لا يخاف عليها بثغرها من أن تصل إليها أيدي أعداء الله.

وصف الجيش الجزائري:

وجيشها شديد البأس كثير العدد وجندها من شرق الخليج وقد قدمنا إلى ما كان غرب الخليج القسطنيطيني يسمى أهله روم وما كان شرقه وقبلته يسمى أهله عجما والفارق بينهما الخليج فالروم حجز بينهم وبين ترك جزيرة العرب والعجم لا حاجب ينهم الصناديد.

التعريف بالداي محمد باشا وجهاده ضد النصارى:

[**الداي:** اعتنائه بالحرب وقوة حزمه وشدة عزمه وقد أبهت النصارى محاربته وغيرهم من كافة الإفرنج وحارت عقولهم من أمره لأنهم إن جاءوه بالعدد والكثير والعدد الشهير هوتهم وإن أقاموا في بلدهم غزاهم فيهم بين قتل وأسر كل عام ولهذا أعظم مصابهم واجتمعت أحابهم واستمدوا الإعانة من جميع أهل ملتهم وطلبوا من معبودهم الباطل أن يصلوا إلى بغيتهم فلم يغني عنهم من الله شيئا فرق شملهم وذهبوا في أسوأ حالة][19].

اسمه: [داي الجزائر هو السلطان أبي عبد الله هي كنيته ولكن تكنى باسم محمد.

باشا كلمة أعجمية نسبته إلى قتلوا لار وهي قرية من قرى أرض العجم مما يلي الخليج الرومي بينها وبينه مرحلة ومرساه من ناحيتها تعرف بميريا][20].

التعريف بمسقط رأسه: [وأما قتلوا لار هذه وجارتها كنجا لأر وهي قرية أيضا وأكبر من كتلولار وأهلها أحسن الناس يكرمون الضيف ويمنعون نزيلهم من كل واحد لأن تلك الناحية أهل بأس ونجدة يحمون ما وراء ظهورهم ولأيدنا لأحد عليهم من عظيم بأسهم وقوة شجاعتهم لا يكاد سلطان يتسلط عليهم ولا عليهم سبيل لأحد إلا الله ورسوله فهم منقادون وللشرع طائعون ولا يمضي فيهم ويرتضي ويقع به القضاء إلا حكم الشرع العزيز وفيهم الحياء والدين وبلادهم أكثرها جبالا وأودية وشعاب صعبة السلوك والمرفأ وهي ذات خصب وزرع وفيها من الثمار ما زاد على الحاجة ويوجد فيها رمان وأجاص لا نظير له في الدنيا إلا قليل وكذلك التين والعنب كثير والزيتون ومن عجائبهم أنهم يعصرون حب الزيتون بعد درسه في ضروب من خشبين خيش القطر بالكولب بين خشبتين وكانوا في القديم يشربون من الآبار وآبارهم عميقة نحو الثلاثين قامة وأكثر ثم أخرج الله لهم ينبوعا جاريا عذبا من جبل قبلة كتلو لار ويجري ماؤها مقاطعا نحو الشرق.

كثير الدخل والأشجار الكبيرة العظيمة مثل الصنوبر والبطوم والدردار والطلح وغير ذلك ويجري ماؤه فيصب في وادي آخر يسمونه أكشاي وهذا الوادي أكبر وأغزر من وادي أكحا ويختلط ماؤها جميعا فينصب في البحر][21].

الداي محمد باشا الذي يعتبر من أهم دايات الجزائر حيث علق عليه الأعرج السليماني بقوله: [كان محمد المجاهد في سبيل الله واسطة عند الدولة العثمانية بواطن الجزائر ومظهر عزها وشامخ سلطانها.

وعن مميزات حكمه يقول فيه: [كان أميرا عادلا، ورعا، صالحا، حسن السيرة طاهر السريرة له أثار ومناقب جميلة ويحسن الثناء عليه كقبله].

وعن علاقته الخارجية يبدوا من خلال النصوص التي تمكنا من الاطلاع عليها أنه قد حسن علاقته مع المغرب الأقصى في عهد السلطان مولاي إسماعيل الذي حاول السيطرة على الغرب الجزائري لكنه فشل فشلا ذريعا نتيجة للمقاومة التي تلقاها من طرف الدولة الجزائرية مما جعله يجنح إلى السلم وفي هذا الصدد يقول الأعرج السليماني: [ومن محاسن هذا الوالي أنه فتح باب الود مع حكومة المغرب الأقصى وربط علائقه مع سيدي محمد بن عبد الله بن المولى إسماعيل فاس وسعى في الاتصال بين حكومة المغرب وحكومة آل عثمان][22].

نستنتج من نص الأعرج السليماني أن هذا الداي حسن علاقته مع جيرانه في الغرب لمواجهة الخطر الأوروبي المحدق على الجزائر وفي هذا الصدد يقول أنشأ من الأساطيل البحرية ما لم يتقدم مثله في الجزائر ما بين تجارية وحربية واخترعه منها نوعا صغيرا يسمى النجون لم يسبق إليه.

وفي سنة 1183 نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فاستدعت الدولة العثمانية أسطول الجزائر لإعانتها فجهزه وأكمل استعداده واقتضى رجاله ووجهه بقيادة قائد البحر يونس ولما وضعت الحرب أوزارها.

يلاحظ الباحث من خلال الوثائق المتوفرة في المكتبة الوطنية أن الجزائر كانت من بين أهم الدول المرتبطة بالخلافة العثمانية من حيث المساعدة التي كانت تقدمها لها في وقت الشدة أي خلال حروبها مع الدول المسيحية كالأمراطورية النمساوية وروسيا وبريطانية في بعض الأحيان وكان للجزائر دورا بارزا في حروب الخلافة العثمانية في شبه جزيرة البلقان[23] حيث فقدت الجزائر خلالها مجموعة كبيرة من أبطالها وسفنها الحربية مما دفع بالبعض إلى القول بأن حرب اليونان وانهزام الأسطول الجزائري سنة 1827 كان من بين عوامل نجاه فرنسا في احتلال الجزائر سنة 1830.

لم يتوقف الأسطول الجزائري عن مساعدة الخلافة العثمانية بل ساهم في المحافظة على الأمن بالبحر الأبيض المتوسط عكس ما تدعيه الدراسات الأوروبية التي ترى بأن الأسطول الجزائري كان عاملا من عوامل انعدام الأمن في البحر الأبيض المتوسط وهذا النص الذي جاء به السليماني يؤكد عكس ذلك وفي هذا الصدد يقول: [أمرته الدولة العثمانية باستئصال لشافة قرصان الزبنطوط وهم قوم من اليونان اتخذوا أسطولا وانقطعوا في عرض البحر المتوسط يترصدون المراكب التجارية من سائر الدول فلا يصادف مركب إلا أخذوه بما فيه وقتلوا من به من الناس فجهز باشا المجاهد أسطول الجزائر بقيادة الحاج سليمان فاستولى على هؤلاء الزبنطوط وساقهم بمراكبهم إلى الجزائر وأراح الناس من كيدهم][24] توليه السلطة تولى شؤون الدولة الجزائرية بعد علي باشا.

علق عليه الكاتب فقال وكانت ولاية هذا السلطان على مملكة الجزائر ببيعة كاملة من أهل الحل والعقد بعد أن أوصى باستخلافه السلطان الذي كان قبله رحمه الله لما رأى فيه من النجابة والنجاح وكثرة الديانة والصلاح والاتصاف بالحكم والانتساب لأهل العلم.

فاجتمع له في ولايته الاستخلاف ممن قبله والبيعة التامة الشرعية من أهل الحل والعقد وخاصة أهل الكلمة فقهاء وعسكرا بارك الله فيهم.

وملأ قلبه حقدا على عبده الأصنام وصار يغزوهم المرتين والثلاث والأربعة كل عام بل ربما غزاهم كل شهر.

اهتمامه بالأسطول:

وأخبرني غير واحد ممن أثق به أنه منذ تولى المملكة والبحر عامر بالمجاهدين من الجزائر بأمره وتجهيزه بحيث لا تزال كل شهر ترى مركبا خارجة غازية وأخرى داخلة غانمة وعظم الخطب والصيت على المشركين من كفار عمل أسبانيا وعظيم ما أصابهم.

الحملات الأسبانيات على مدينة الجزائر :

حملة وريلي 1775:

الحملات الأسبانية على مدينة الجزائر في الثلث الأخير من القرن الثامن عاشر الميلادي:

من بين الذين تعرضوا لهذه الحملة الأعرج السليماني حيث قال وجه مالك أسبانيا فليب الخامس جيشا جرارا حمل على مدينة الجزائر ووصلت هذه القوة في خمسمائة مركب مشحونة بالذخائر والعساكر فنزلت إلى البر وعسكرت بوادي الحراش وكان داي الجزائر مستعد لها فاستنهض متصرف قسنطينة ومعسكر فقدم إليها ومعهما جيش العاملات وحشود المتطوعة من العرب وهجموا على معسكر الأسبان وأشعلوا على العدو نار الحرب من كل جانب حتى خالطوا وزحزحوه من معسكره واستأصلوا جموعه قتلا وأسرفوا على المعسكر بما فيه لمارة من المراكب واقلعوا راجعين إلى بلادهم ثم عادت أسبانيا الكرة في المرة الثانية في السنة نفسها، فجمع الدفونش وهو عظيمهم المسمى بكارلوا أحزابهم وجهز جيشا بل جيوشا كثيرة واستعمل عمارة واستكبارها وهي عندنا صغيرة وقصد الجزائر يتربص الدوائر ورست سفنه قريبا من ساحلها غرة جمادى الأولى وكان يوم جمعة فلما مضت الجمعة التي تليها نزلوا سحر يوم السبت تاسع الشهر سنة 1189 تسع وثمانين ومائة وألف إلى الساحل بموضع يعرف بالحراش وركزوا به أترأسا يترسون بها وصورة أبراج البناء من الخشب.

ولما أصبح طرب لقتالهم أهل الإسلام وقصدوهم قصد الراغب في دار السلام وتراءى الجمعان والتقى الصفان حتى لتسمع الأذن من المدافع وطنينه من قفعهم السيوف زينة ومات من الفريقين مشاء الله وذلك يوم السبت.

وكانت الفجاءة لهم صباحا قيل حتى وصل بعضهم طرف البساتين ثم كانت الدائرة عليهم وسيق النصر للإسلام فانتدبوا إليهم وانهزم الكافرون برعب القاطم الله في قلوبهم كعادته في أمثالهم ودخلوا تحت جناح سحر ليلة الأحد متسترين بظلمة ليركبوا سفنهم وبلغت أرواح شجعانها.

جلا فيهم وعلموا أنهم إن أصبحوا أحل بهم أما الموت أو الأسر والعذاب الأليم فركبوا سفنهم بفيضهم وبكر بهم وأصبح مكانهم بخبر بلسان حاله عن عظيم رعبهم قد تركوا أمواتهم وكثيرا من آلات حربهم ويلعن بعضهم بعضا وكلهم ملعونون.

وكان ارتحالهم من تلك المرسى يوم الثلاثاء عاشر جمادى المذكورة.

ثم لما كان عام سبعة وتسعين جمعوا كيدهم أيضا وجاءوا في عدد وعدد بأكثر من الأولى وكان مرادهم أن ينزلوا ثانيا من حيث نزلوا فوجدوا هذا السلطان الكريم المجاهد العظيم قد بني في ذلك المحل ما يركب جندهم وبيد جهدهم ويضعف كيدهم من البناءات المرصوصة والمدافع الموصوفة المخوفة والعساكر التي هي بالأيمان موصوفة وبالنصر محفوفة فمنعهم ذلك من الهبوط وكان ارتفاعهم عن البحر هو عين السقوط ولزموا ماء البحر كالحيتان إذا حاربن والأجدع وكالإبل إذا بان المر زوم جوار الأعزل وحاربه بالمجانيق النيرانية على بعد بما ظفه وآلت بالمشقة وبلوغ الجهد وارتحلوا صبيحة يوم السبت شهر رمضان خائبين ناعين موتاهم.

وقد كتبوا المكاتب الذين من قبلهم ثم لما عظم عليهم المصاب وهو أكثرهم في نفسه وارتاب وسمع بهزيمتهم الأقطار والأمصار وتأججت في صدورهم نار أي نارما البسوا ثياب الحزن والعار وركبوا البحر ثلاثة أقولهم بالتثليث ولعدم معرتهم بما تحصرهم جعد أفئدتهم من الترويث للتلويث ورست سفنهم حيث رست قبل وبعد وأعن أن يصيبهم الرصاص والكور والنبل فخرج عليهم الإسلام في نحو من ثلاثين زورق صغارا وبذلوا أنفسهم لله امتثالا وانتصارا وأعلنوا بكلمة التوحيد وبالتكبير والتسبيح والتحميد حتى كان ذلك اليوم من الفرح بالجهاد يوم عيد واستعرت النار شرارا وحريقا في المراكب تفْريقا وتمزيقا حتى لا يجد الشفاع في فمه يومئذ ريقا وأشبهت اللوافح في المواقع وصمت الولدان من قواصف رعود المدافع وعلم الكوافير أن مالهم من عذاب الله من دافع فكسر الإسلام من مراكبهم الكبرى مركبين واعتصروا من صغارها نحو الثلاثين برب المشرقين والمغربين واتضح بالكاشفة

خذلان أعداء الله وخسرانهم وانفضت بإظهار عجزهم وهزيمتهم صلبانهم وما غنت عنهم تلك المنجنيق انتفاعا وذهبوا وهم بالغصة كالمخانق يسرعا ومات من أعداء الله في الواقعات الثلاثة ما يوجب حيرة الحيسوب.

كان ورودهم يوم الخميس 26 شعبان وارتحالهم عاشر يوم من رمضان.

لم يزل هذا السلطان الصالح والمؤمن الكامل الناصح مشغولا بالجهاد بعد انتصار الذي تحقق ضد الأسبان.

من بين إنجازاته في مدينة الجزائر قصر الداي والمسجد المتصل به وهو المعروف بمسجد كتشاوة الذي حول إلى كنيسة في عهد الاحتلال الفرنسي وجامع الباشا المعروف للحنفية وبرج سردينيا وبرج رأس العين والبرج الجديد وأصلح قناة الحامة وأجرى ماءها بسقايات على أبواب المساجد والحصون ونصب خوابي السبل من الرخام بشوارع الجزائر وأوقف على ذلك أوقاف جليلة ويقول الكاتب عن هذه المنشئات وعلى الخصوص العسكرية: [زاد في إصلاح الثغور وبناء ما لا يخاف به بادنا المساماءات الدهور

برج رأس عمار:

ومنها برج عظيم البناء أحدثه قرب موضع يعرف برأس عمار وأسس أركانه وأشاد بنيانه وجعل عليه مدافع عظيمة فالثغر بها حصان وعمره عمارة له شأن من الشأن.

طبانة الحراش:

ومنها طبانة أحدثها في موضع يعرف بالحراش تشتمل على عمارة عظيمة بمدافع جسيمة يحصل بها للكافرين عظيم إرهاب ومن دانا منهم إليها أذاقته طعم العذاب وهي مطردة قامعة للنصارى من أن ينزلوا هنالك لأنهم أيقنوا أن من قرب منهم إليها هالك وذادتهم فصا الإرهاب عن ذلك الساحل وصيرته وهو أقرب إليهم من ثلاثة أميال كأنه بعيد براحل[25].

طبانة المجاهدين:

ومنها طبانة تعرف بطبانة المجاهدين أحدث بناءها في مصارع المجاهدين بالعام الأول فكانت بين طبانة الحراش والمدينة أقامها اختراعا من أسلاسها وعمرها بمدافع ترهب الكفار من بلاسها وأقام نوبتها لحراستها فكانت له أحسن ما يراه الناظرون وتبتهج بها النفوس وتقربها العيون[26].

طبانة الدباغين:

ومنها طبانة أحدث بناءها بالدباغين وهي أيضا عظيمة البنيان قوية السيسان يخافها البعيد خوفا لدان لما جعل عليها من المدافع العجيبة وما خصها من الهندسيات الغريبة.

طبانة برج الفنار[27]:

ومنها طبانة أخرى كبيرة عظيمة لا نظير لها أحدثها تحت برج الفنار ركزها في نحو عشر قامات وأكثر عمقا في البحر ولم يزل يلقي عظيم الحجارة في البحر حتى علا الحجر على الماء فتم بناؤها وأغرب في صنعها وجعل لها صراطا من البر يبلغ إليها ثم انتهي نظره السديد وراسيه الرشيد أن يجعل فوق ذلك كله سقفا مستعمل وسطه بحيث لا يصاب من فيها بسوء من منجنيق أعداء الله أبدع في فخامة البنيان بحيث لو تنزل عليها البونبة أبدا فأهلها في أمان الله لحول قوته[28].

طبانة الجزيرة:

ومنها طبانة أخرى أيضا كبيرة أنشأها لله خارج الجزيرة على شمل الخارج من الباب وجعل فيها أيضا من المدافع والعمارة ماله به عظيم وكل من في سمتها لجهة البحر لا يأمن هلاكا إلا بأمان ربها[29].

طبانة باب الواد:

ومنها طبانة أخرى أحدثها جهة باب الوادي في موضع يعرف بالجعل لرو هي أيضا حصن كبير وموضع لأرصاد الحرب شهيد وفيها من المدافع العظيمة عدد كثير.

طبانة برج بوليلة:

ومنها طبانة أخرى أحدثها تحت برج بوليلة بين البحر ومكان يعرف بالسبع فأحسن تأسيسها وبنائها وحكمها تحكيما عظيما وجعل فيها أيضا من المدافع وءالة الحرب ما يعجب النظار ويقيض الكفار ويرضي الواحد القهار.

طبانة قاعة الفول:

ومنها طبانة أخرى رسمها بموضع يعرف بقاعة الفول جعل فيها من المدافع والعمارة التي لابد منها ما يعجب القلوب ويغفر الذنوب ويتعلم به الجاهل وصف الحروب.

طبانة برج إبن نيارة:

ومنها طبانة أخرى أحدثها أيضا تحت برج إبن نيارة فكانت كافية عن البرج المذكور وجعل فيها من عمارة الحرب وقطع المدافع القدر الموفور بحيث لو لم يكن إلا هي وطبانة رأس عمار لكان الناس في أمان من الكفار.

طبانة مرسى الذوبان:

ومنها طبانة أحدثها أيضا بموضع يعرف بمرسة الذوبان وجعلها كاملة الوصاف ليس فيها نقص ولا انحراف وجعل فيها من المدافع وآلة الحرب ما يخافه من لا يخاف[30].

برج السردين:

ومنها إصلاحه لبرج السردين كان في القديم مبني بناء الجملة فشرع هذا السلطان الصالح في إصلاحه وبنائه وزاد فيه زيادة نقلت عن أصله بحيث صار غير أصول شكله وعمارة وقوة بناء وجعل فيه من المدافع وآلة الحرب ما يستعجبه أولوا الأبصار ويستغربه ذو التفكير والاغتراب[31].

مسجد كتشاوة:

ومن حسن صنعه مع الله سبحانه وانه يرجوا فضله وإحسانه وبه يستحق عفوه في رمه وبنائه وتحكيمه واعتلائه في الرخام الملمع والمرمر الجزع والعمدة العجيبة المصففة والأقواس الغريبة المرصفة والجليز المزوق والمحراب المرونق وللريا الغالية والأسطوانات الحالية والقباب العالية فهو نزهة للناظر وعبرة للمتفكرين ما بني قط في الجزائر مثله والأسبق لأحد تمثاله[32].

إدخال الماء للمدينة:

ومن محاسن هذا السلطان مع الله ومرعاته لنفع عباد الله أنه أجرى سبيلا بثلاث شعب تنبع بالليل والنهار مسهل سبيله من موضع يعرف بالحامة على نحو تسعة أميال فقهية وبنا سقاية جوار الجامع الجديد تجاه القهاوي فالناس يتواردون إليه وينتفعون به النفع الذي لامزيد عليه[33].

عين سوق الصفارين:

وأجرى الله أيضا على يديه ينبوعا من أنبوبين في سوق الصفا رين عظم النفع بهما واستفاد منه عامة الناس وخاصتهم وأصل مائها من الحامة الذكورة[34].

ولقد عامل الله سبحانه وايجازيه خير الجزاء بكثرة ماله في سد الثغور وإجراء السبيل في بناء المساجد من الحرص والاعتناء فالله يجازيه في الدنيا والآخرة بأعلى درجات السعد ويجعله من الملوك الذين أحسنوا ولهم الحسنى وزيادة.

إدخال الماء لمدينة عنابة

ثم من كثرة ديانته وعظيم شفقته على عباد الله لما بلغه أن أهلبلدبونه المعروفة بعنابه يحتاجون للسقاية وتاعبون في نيل الماء بحيث يخرجون في طلبه إلى بعيد وبلغوا في الحاجة إليه الجهد الجهيد وضعفت فقراؤها عن قيام أنفسهم ما يعاتبهم من الماء أمر خليفته على تلك النواحي الشرقية وخادم دولته المحمدية الصالحة الطائع لأمر الله وأمره بما هو به مأمور والسائر في أحكامه على ما يرضاه سيده السلطان في جميع الأمور

محب العلماء وراحم الفقراء صالح باي أن يجري لهم ماء عين نضاخة من جبل أيدوغ وموضع يعرف بالحمرة على قدر ستة أميال فقهية من جوف عنابه إلى المغرب في أرض صعبة المسالك بين انحدار وصعود فشرع يصرف الماء وتخدمه الرجال وبني في سبيله بهندسة محكمة ليصل بها الماء إلى باب البلد فلم يزل أن زاد بواد منسفل يرفع البناء وإن صادمته أكمة عالية دون منحدر الأول أطلق السبيل على ظهرها محروزا بالبناء محكما بالاعتناء وإن كانت أعلا منها التزم شقها نصفين حتى يوازي منحدر الماء ما قصده الراغب فيبني بدمس ويردها للحجر والتراب عليه.

فأول انحدار على أرض تعرف بالدباشة إلى واد يعرف عنهم بوادي فرشة فجعل على الوادي قنطرة مقوسة حسنت الصنع ثم ذهب بها في جانب أجمة طويل سمتها إلى ناحية البلد تعرف عندهم بدرع الصفير ثم جدبها إلى جانب الوادي المذكور لكونه منعطفا وذهب بها حتى لقيته شعبته فجعل عليها قنطرة أيضا وذهب بها إلى أن أدخلها البساتين فمتر من واحد إلى أخر إلى أن بلغها إلى الباب الغربي المعروف عندهم بباب الرحبة جوار الوالي الصالح الشيخ حرز الله وانتفع المسلمون بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم على يد السلطان الكريم وصار أهل البلد وغيرهم منتفعين بها للنفس والدابة.

ثم شرع في بناء خان تجاه الساقية ودعا أمير قسنطينة المذكور قاضي عنابه وأعيانها ورؤساءها وعدولها وشرعوا في بناء الخان فصيروا خانا كبيرا واسعا على طبقتين بناء فوق بناء فتباهت بهما البلد وسر بهما الولد والوالد.

وبنا أعتابا متعددة الحرف يكترونها وصير خراج الخان والأعتاب وقفا كله له وحفر خراج ذلك بيد أمين زكي يصرف منه على إصلاح السقاية والخان [35].

صالح باي واهتمامه بتعمير قسنطينة:

ولما علم خليفته الزكيلأرشد صالح باي رغبة سيده المذكور في فعل الخير واجتهاده في العمال الصالحة شرع هو أيضا في بناء المساجد والمدارس وجلب العلماء إلى بلده وسعى في كل ما يصدق عليه شرعا فأوسع في البلد صلاحا وصير ظلماتها صباحا فبنى

مسجد للجمعة جوار الشيخ الكتاني وأحسن في البدعة وأجمل في اصطناعه وهندس في اختراعه وأعنى بالرخام النفيس العناية وزوق بالمحاسن حيطانه ومحرابه وفتح لعبادة الله أبوابه ورتب إيمانه والخاجات وأقيمت فيه الجمعة والجماعات ودارت فيه حلق التدريس.

واشترى له من كتب العلم خزانة واشترط لا تخرج منه في رسم التحبيس.

وبنا بالجانب الشرقي منه مدرسة حسن رخامها مستحسن نظامها فالطلبة فين مرتل لكتاب الله ومعتكف على سنة رسول الله وجعل بها روضة لتربته لتأنس بسماع القرءان روحه.

وبنا مدرسة أخرى برحبة البلد ولم يبلغ في تكليفها لهذا الحد ولكنه جعلها مأوى للغريب ومن أراد أن يأخذ من العلم والقرءان بنصيب[36].

الهوامش:

1- لمزيد من المعلومات أنظر كتاب الزهرة النائرة الذي أرخ صاحبها لأغلب هذه الحملات.

2- أن لقب البوعناني موجود بالجزائر ولعله ينسب لهذه العائلة العلمية لأن الكاتب يشير في نص له أن أباه كان عالما.

3- الزيبان يقصد به ما يعرف اليوم بمنطقة الحضنة وبسكرة وما جاورها حيث تعتبر بسكرة اليوم عاصمة الزيبان.

4- بحر ينطيس لعل المقصود به البحر الأسود حيث تتواجد على ضفافه هذه الشعوب.

5- يقصد بها امارات المسيحية التي نشأت شمال الأندلس ودخلت في صراع مرير مع المسلمين انتهى بسقوط الأندلس سنة 1492.

6- أول نص تمكنا من الاطلاع عليه يشير أن الأندلسيين انتقلوا لبلدان أوروبا الوسطى بعد سقوط الأندلس لأن ماهو معروف أن الهجرة الأندلسية كانت للبلدان الإسلامية وبلاد المغرب الإسلامي بصفة خاصة.

7- لعل المقصود بهم هم المسيحيين الذين ينسبون لعيسى من الناحية العقائدية كما نقول نحن عن أنفسنا أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

8- الناصرية من المدن الفلسطينية المحتلة نسب إليها النصارى.

9- العنتري تاريخ قسنطينة.

10- توقرت مدينة تقع بالجنوب الجزائري بالقرب من ورجلان تأسست فيها إمارة في العصور الحديثة نسبت لعائلة المرينيين الذين حكموا المغرب الأقصى خلال العصور الوسطى وقد سقطت على يد الفرنسيين بعد احتلالهم للجزائر.

11- اندثرت أغلب المؤسسات التي شيدت من طرف صالح باي لمزيد من المعلومات عنها انظر العنتري تاريخ قسنطينة فصل فيها.

12- لم يلقب صالح باي بأمير المؤمنين حسب المصادر والمراجع التي تمكنا من الوصول إليها وحتى داي الجزائر لم يلقب بأمير المؤمنين لأن هذا اللقب كان يلقب به الخلفاء ومنهم العثمانيين بعد سقوط الخلافة العباسية.

13- يبدوا من هذا النص أن صالح باي كان من المعارضين للطرق الصوفية لتقديسهم لأولياء الله الصالحين.

14- وقع اختلاف كبير بين المؤرخين حول شخصية خالد أو سيدي خالد الذي نسبت إليه مدينة سيدي خالد في ولاية بسكرة كما نسبت بلدية سيدي عقبة لسيدي عقبة الفاتح الذي يوجد ضريحه بها فبعض الرحالة ومنهم العياشي والورتلاني يشيران بأنه نبيء.

15- أن الاهتمام بفتح بلاد المغرب الإسلامي ظهر في عهد عمر بن الخطاب عندما كان عمر بن العاص واليا لمصر لكنه لم يتم تنفيذه إلا في عهد عثمان وقبله كان العمل استكشاف للناحية.

16- ورقة 82.

17- لمزيد من المعلومات عن العلماء الذين استقروا في القيروان في القرون الأولى الهجرية أنظر أبو العرب طبقات علماء إفريقية والمالكي رياض النفوس تجد مجموعة كبيرة من التراجم لهؤلاء العلماء.

18- مدينة الجزائر من المدن القديمة تعود لعهد الفنيقيين ثم عمرت من طرف روما وفي الفترة الإسلامية أقيمت بها إمارة علوية سقطت على يد الزيريين حين عاد بلكين بن زيري بتعميرها وقد أسس فيها المرابطون المسجد الكبير ثم اتخذها الزيانيون عاصمة لأحد ولاية الدولة الزيانية وفكر أبو حموا موسى أن يتخذها عاصمة لدولته بعد اضطراب المن في تلمسان.

19- الحملة المقصود بها حملة أورلي ضد مدينة الجزائر سنة 1775 ولم تكن الحملة الأولى التي وجهتها أسبانيا ضد الجزائر بأكبر حملة هي التي قام بها شارل الخامس سنة 1541.

20- المقصود بها إحدى المناطق بالأناضول التي كانت تزود الجزائر بالمتطوعين خلال فترة العصور الحديثة.

21- التعريف بهذه المناطق.

22- تميزت العلاقة بين الدولة العلوية في المغرب الأقصى والخلافة العثمانية بنوع من العداوة بعد ارتباط الجزائر بالخلافة العثمانية وإعلان خلفائها الخلافة لكن في بعض الأحيان كانت الدولة العلوية تلجأ إلى تحسين العلاقة معها على الخصوص بعد فشل مشاريعها التي كانت تهدف إلى الاستلاء على أجزاء من الجزائر كما حدث في عهد مولاي إسماعيل.

23- المقصود بالمعركة معركة نافرين التي انهزم فيها الأسطول العثماني والجزائري والمصري باليونان.

24- كلمة الزبنطوط تطلق على الجند العزاب واستمرت الكلمة متداولة في الجزائر وكانت فرقة من الإنكشارية مقيمة في مدينة البرواقية بولاية المدية تعرف بفرقة الزبنطوط.

25- عن هذه القلاع والحصون انظر علي خلاصي تاريخ الجزائر العسكري حيث تعرض لها بالتفصيل وحدد مواقعها وهو من بين الأثريين الذين عملوا في الميدان بصفته كان مسؤولا عن التراث بوزارة الثقافة.

26- لمدينة الجائر مجموعة من العيون في أزقتها نقل مياهها من منابع خارجها عن الموضوع هناك دراسة للمرحوم الدكتور مولاي بلحميسي حول العيون يمكن الرجوع إليها.

27- يوجد حصن يعرف بنفس الإسم.

28- قوة الله عز وجلا.

29- المقصود به إذن الله عز وجل.

30- يخشى منه من يريد الاقتراب منه والمقصود به القراصنة الأوربيين.

31- يرجع ذلك لعظمة تحصينه لأن هذه الحصون كانت مهمة للغاية بالنسبة لمدينة الجزائر في مواجهة الحملات الأوروبية.

32- المقصود به لم يسبق لأحد أن شيد مثله.

33- ورد في وثائق المكتبة الوطنية القهوة القريبة من الجامع الكبير وهي من بين المقاهي المشهورة في القرن الثاني عاشر الهجري الثامن عاشر الميلادي.

34- منابع الحامة لا تزال لحد الآن وهي القريبة من حديقة الحيوانات.

35- الخان المصطلح معروف في المشرق ويقصد به الفندق حيث توجد به أماكن لاستراحة التجار والمسافرين ويحتوي أيضا على مخازن للسلع وإسطبلات للمواشي.

36- أعتم صالح باي بالعلماء فتقرب منهم ووفر المخطوطات في مكتبات قسنطينة لكن تلك المخطوطات تعرضت للنهب عند احتلال قسنطينة من قبل الفرنسيين سنة 1837 ورقة 156.